الفئران لا تسرق!

قال لى كمون الأعور. العامل فى المخبز البلدي. والذى جمعتنى به صداقة قهوة اعتدت الجلوس عليها بعد أن شدّ نفساً عميقاً جعل النارجيلة تهتز وتقرقر نافثا الدخان من فمه ومنخاريه الغليظين :

.« والله يا سيدنا الأفندى أنا احترت. قلت لنفسى أكيد الفرن دى مسكونة بالعفاريت ..»

كل يوم المعلم ضبش ينبه علينا فى حسم لا يقبل الجدل :

ـ« اخبزو عشرة أجولة والباقى خبوه فى الغرفة الجانبية وآخر النهار روحو.»

فى الصباح وجدتنى وسط طابور طويل عريض يعلوه صخب وضجيج ، تزاحم وتنافر ، للوهلة الأولى يمكن ألايكون له بداية أو نهاية و بصعوبة بالغة مددت يدى بين الأيدى المرفوعة قابضاً على قطعة معدنية تنظر إليها معدتى فى ترقب وأمل. أخيرا استطعت أن أتقدم خطوات الى الأمام لأرى صاحب المخبز وقد تكوم على كرسى من أربعة أرجل من الخيزران على باب الفرن. ملوحا بيديه للعمال مسرور القسمات كلما نظر الى هذا الشريط المتموج من البشر. هنا تكمن نرجسيته إنه يحب أن يتطلع إليه

الناس وينادوه. كان منظره مقززاً بشاربه الذى يشبه شارب قط ماكر أما بطنه فقد كانت إلى جانبه كقربة صغيرة مدورة بدت وكأنها منفصلة عن باقى جسمه.

همس أحدهم فى الصف:

- إنه يأكل أجولة الدقيق بالليل علشان كده بطنه..

هنا طفا إلى ذاكرتي فى سرعة البرق ما قاله لى كمون فى جلستنا على القهوة .

أخيرا حصلت أنا على خمسة أرغفة؛ أخذت طريقى الى البيت وبحركة غريزية بدأت يدى تطعم معدتى بواحد منها، فلم ألقى بالا لنظرات الناس بل كان كل همى أن اقضى على جوعى تماما. عندما وصلت بدأ عقلى يعمل هل ترى حقا ضبش يأكل أجولة الدقيق.؟ الفئران تفعلها.

قال كمون:

- « فئران إيه يا سيدنا الأفندى الفئران تأكل حتى تسد جوعها فقط. إنما ده كل يوم يزداد جشعه.

كنت كل يوم أسافر فى ذلك الصف الملتوى كأفعى، أتأمل فى وجوه الناس، وقد بدت كالحة يتقاطر منها عرق الفقر. أناضل حتى أحصل على أرغفتى الخمسة وأنظر الى بطن المعلم ضبش زادت حيرتى حين رأيته تضخم بشكل مرعب. وكان الناس ينظرون اليه فى دهشة. حتى أنه يمكن أن ينادى بالمعلم « الكرش».

فى المساء، قال لى كمون فى يأس :

« لقد اصبح أكثر شراهة اليوم لم نخبز سوى جوال واحد. تجمهر الناس غاضبين. وانصرفوا وهم يقولون :

- « منّك لله ياضبش»

فى الصباح دوى انفجار سمعه كل من فى الحى. وحمل الهواء رائحة نتنة أذكمت الأنوف. والغريب أن الكل عرف السبب وبدأت أسمع عبارات

ـ « قوت الناس أخذه ووضعه فى بطنه، خليه ينفعه. »

ـ « ربنا كبير يمهلْ.. ولا يهملْ. »

أصابنى الذهول وانا أتخيل المعلم ضبش وقد انفجرت عنه بطنه !

قلت لنفسى مشفقاً لما لانتعلم من الفئران ألا ..